الفصل الثانى عشر

فى إطار المرجعية الإسلامية

الأخلاق والدولة

عبرت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ عن مجموعة من القيم الأخلاقية ارتقت بها إلى مستوى حضارى متقدم شهد له الداخل فى مصر والخارج. وقد رأينا خلال تجمعات الشباب الثوار فى وسط القاهرة أنه لم يتم الاعتداء على كنيسة ولم يصب مسجد بأضرار، ولم تحدث حالة تحرش واحدة أو حالة سرقة، كما علت هتافات الثوار تنادى بمطالبهم بطريقة سلمية لا عنف فيها ولا اعتداء على أحد. وفى نفس الوقت تكاتف المسلمون والمسيحيون فى الدعوة لمطالبهم المشتركة فى إطار نموذجى من الوحدة الوطنية كان أبرزها أداء المسلمين لفروض صلواتهم يحميهم المسيحيون خلالها، وأداء المسيحيين لقداسهم يحميهم المسلمون خلالها، وإلى غير ذلك من مظاهر التلاحم الوطنى التى حشدت أخلاق الديانتين الإسلامية والمسيحية على السواء فى قمة السلوكيات الحضارية المرتبطة بها، وما زالت (لاآت)[1] الثورة تذكرنا بضرورة القضاء على كل مظاهر الانحراف والفساد والسلبية فى سلوكنا الواقعى والعملى اليومى. وإذا تحدثنا عن المرجعية الإسلامية والمرجعية المسيحية فيما يتعلق بالأخلاق كقيمة اجتماعية وإنسانية، فإنما نتحدث عن مقومات مشتركة بين الديانتين من أجل بناء الإنسان بناءً نفسيًّا متوازنًا ومعتدلًا، إنسان يتمسك بقيم الأخلاق الفاضلة وبالمحبة والإخاء والتسامح باعتبارها من أساسيات التربية الروحية

(١) لا للتعالى لا للرشوة لا للمحسوبية لا للكذب لا للفساد لا للفوضى... إلخ.

والأخلاقية فى الديانتين... أساسيات قادرة على الحفاظ على سلامة البنيان الاجتماعى والتعايش الأخوى الذى فى ظله يتم فيه احترام العقيدة الدينية للآخر وضمان حرية إقامة الشعائر الدينية لكل إنسان وتدعيم سلوكياته الأخلاقية والحضارية. وسيظل كل من المسجد والكنيسة هما المحراب الذى ينمى فيه الإنسان طاقاته الروحية وقواه الأخلاقية، ويستطيع بهما مواجهة التحديات المادية والنفسية فى حياة الإنسان التى أصابتها الحضارة المادية المعاصرة بشتى أنواع الأمراض والعلل. ولقد وضع الإسلام والمسيحية فوارق واضحة بين الحسن والقبيح وبين النافع والضار من الخصال والأعمال، ففرقت - على سبيل المثال - بين البخل والإسراف وبين الأنانية والإيثار وبين النصيحة والتشدد وبين الحرية والفوضى وبين الحزم والاستبداد وبين الصدق والكذب... إلخ.

إن مرجعية الإسلام ومرجعية المسيحية، لا يقفان بعيدًا عن القيم الأخلاقية التى أبرزتها ثورة ٢٥ يناير، بل إن هاتين المرجعيتين هما الأساس الإيمانى والدينى لأخلاق الثورة تدعمهما ثقافة عامة عقلانية ووعى حضارى متقدم. ومن المعروف الآن أنه فى الدراسات الإنسانية الهادفة إلى إصلاح السلوك، أيقن العلماء والدارسون أن الفكر المجرد لا يصلح عاملًا فعالًا إلا إذا تضمن عنصرًا دينيًا، وهذا هو السبب فى أن الأخلاق الدينية المطلقة هى التى تؤثر على الأختلاق المدنية، وغالبًا ما لا يتحمس الإنسان فى الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها ذات ارتباط بالأديان ونابعة منها. وقديمًا قال المسيح عليه السلام: «من ضربك على خدك الأيمن فاعطه خدك الأيسر» مؤكدًا بذلك قيم السلام والتسامح والعفو، ومن بعده قال محمد ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». لقد بدأ المسيح - عليه السلام - ثورة الأخلاق الكبرى وتبعه خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ فأكمل وأتم أخلاقيات هذه الثورة على أكمل ما يكون البنيان الأخلاقى للناس كافة، حتى وصفة كتاب الله القرآنى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. إن القدوة التى يمثلها كل من محمد والمسيح تتجلى فى نمط سلوك وأسلوب فكر وقيم أخلاق ومسيرة حضارة ومحبة وأخوة ورحمة إنسانية وعدل مطلق وتسامح وعفو ولين ورأفة وحكمة قيادة وقدوة إرشاد... إلخ. وإن أبناء محمد والمسيح سيشتركون معًا فى بناء مصر الحديثة ودعم التقدم والنهضة.

ومن أبرز سمات الإنسان المرتبط بمبادئ الدين الأخلاقية، الاستعلاء الذى يصاحبه فى كل موقف من مواقف حياته، الاستعلاء فى وجه الظلم وفى وجه المغريات وفى وجه الشهوات المتطرفة وفى وجه القيم الزائفة. كما أن سلوكه يتسم بالنزعة الإنسانية والمشاركة الاجتماعية ويعرف واجب الأخوة فى التعامل الإنسانى وينزع إلى الخير دائمًا حيث يملأ قلبه بمشاعر الحب الخالص الذى يفيض به على كل الناس. ويتسم سلوك المؤمن بالتوازن فى الفكر وفى القول وفى المشاعر؛ لأن فيه قوة ضابطة موجهة، تهتدى بالمرجعيات العليا للأديان السماوية وخاصة الإسلام والمسيحية، وتوجه سلوكه إلى الخير، وبذلك فهو قوة فعالة فى الحياة بفاعليته وإيجابيته؛ لأن إيمانه يبعده عن سلبيات الحياة ويدفعه لتحقيق الإيجابيات فيها، يعيش بأقصى طاقاته واستعداداته فى عالم الواقع ويبذل جهده فى تحقيق ذاته محاولًا الوصول إلى المثالية بلا انفصال بين الواقع وذاته، ولا بين الواقع والمثالية.

وبما أن القيم الأخلاقية ثابتة باعتبارها مستمدة من تعاليم الدين الثابتة، فإن هذه القيم ينبغى أن ترد إليها، وتقاس عليها كل مظاهر الانفتاح فى المجتمع، والذى قد يشمل التقاليد والأعراف والعادات. وكل تجاوز فى هذه الأمور لثوابت القيم الدينية الأخلاقية يعتبر ظاهرة سلبية فى المجتمع ينبغى علاجها ومواجهتها بتعاون وتضافر جهود مؤسسات عديدة دينية وغير دينية، ومن هنا ينبغى أن تكون القيم الروحية للأديان ضابطًا للمتغيرات العالمية الحاصلة وتلك المحلية. وعلى سبيل المثال، فإن الليبرالية الرأسمالية الجديدة والتى على شروطها يسير وطننا، تتجه نحو إضعاف التماسك الجماعى والاجتماعى؛ وذلك لسبب بسيط هو أنها تنبنى على الأنانية وحب الذات فى شكل ما يمكن وصفه بمجتمع الأنا أولًا، وما ينتج عنه بالضرورة من فقدان قيم الإخاء والإيثار والتعاون والتكافل وإتاحة الفرص فى انتشار الفساد واستفحاله. إن أهمية البعد الاجتماعى فى عملية التنمية الأخلاقية للمواطنين تؤدى إلى خلق مجتمع لا صراع فيه بين الطبقات؛ لأنه - أى البعد الاجتماعى - يعيد التوازن بين الفردية الأنانية والجماعية التعاونية بما يضمن - بقدر ما - سيادة القيم الأخلاقية فى المجتمع المدنى.

ومن واجبات المصريين الأساسية اليوم؛ أن يفطنوا لكل العقبات التى تقف حجر عثرة أمام تقدمهم المادى والروحى (الأخلاقى) معًا، وهما العنصران الضروريان اللازمان لسلامة بنيان وقواعد أى تقدم أو تحديث أو مخطط للنهضة فى الدولة المدنية الحديثة.

فالتربية الأخلاقية (الروحية) وهى تستهدف تحقيق التقدم الأخلاقى، تمهد بذلك لبناء مواطن يملك القدرة على المساهمة فى تحقيق التقدم المادى لوطنه، إنسان يستطيع أن يستوعب أيضًا التربية والثقافة المهنية اللتين ترتبطان بحياة الناس من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية وتساهمان فى استقرار المجتمعات الإنسانية وتنميتها، باعتبارهما مصدر القوى المدربة ومنبع القوى المحركة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. «ولما كان المنهج التربوى فى الإسلام يكسب مفهومه ـ وخصائصه من أنه ينبثق من العقيدة الإسلامية القائمة على الإيمان بالله ـ تعالى ـ فإنه يمكن تصوره على أنه نظام متميز تستقى عناصره معانيها من التصور الإسلامى للإنسان والكون والحياة، يهدف إلى بناء مجتمع تتوافر فيه مؤسسات واعية مسئولة وأنشطة هادفة، وقدوة صالحة توفر للأفراد فيه مناخًا صافيًا نقيًّا، وبيئة صالحة تحيطهم بسياج من الأمن وتحفظهم من الوقوع فى مزالق الفتنة والشر، وبذلك فإنه يمكن تصور هذا المنهاج على أنه منهاج منفرد فى أهدافه ومحتواه من حيث الشمول والتوازن والتكامل، واقعى فى طرائقه وأساليبه يخاطب الفطرة ويتمشى مع طبيعة الإنسان برفق وحكمة، ويفى بمتطلبات الحياة، فيربط بين التربية والعمل وبين النظرية والتطبيق.... ومن هنا، فإنه من الطبيعى أن يراعى المنهاج التربوى، المبنى على مبادئ التربية الإسلامية، والمتسم بالشمول والتكامل والتوازن فى مختلف عناصره، أهمية الجانب المهنى المرتبط باحتياجات ميادين العمل، فيزيل الحواجز بين الجوانب النظرية والجوانب العملية، وبين التعلم والعمل والتدريب، بحيث يصبح التعليم فى جميع المراحل تعليمًا متكاملًا، يهدف إلى بناء الشخصية المتكاملة القادرة على مواصلة التعلم والعمل عبر رحلة الحياة»[1].

---

(١) راجع التفصيل أكثر فى هذا الموضوع: السفير محمد أمين جبر «أصول النهضة الإسلامية» ـ الناشر مكتبة الشروق الدولية، وبه مقتطفات من بحث تربوى للدكتور محمد عبد الكريم أبوسل.

إن السلوك المؤسس على التربية الأخلاقية هو المعيار الصادق لتقديم ورقى الفرد وبالتالى الشعوب والأمم. وهو - أى السلوك - انعكاس صادق للعديد من العوامل أهمها الفهم الواعى للمحتوى الدينى من القيم والمثل العليا والأخلاقيات، كما أنه يتأثر بالتعليم وبالإعلام وبالاقتصاد والثقافة والفنون، واحترام القانون وفاعلية الضمير. وفى الحاضر كما فى المستقبل فإن طوفان التكنولوچيا سوف يمثل تحديًا عظيمًا وخطيرًا لمنظومة القيم والأعراف والتقاليد والثقافات الدينية الإسلامية وغير الإسلامية، ومن ثم فإن قواعد التربية الروحية المبنية على القيم الروحية للأديان السماوية ستكون هى السياج الواقى من أى شروخ يمكن أن تصيب جدار السلوك الأخلاقى وتتسبب فى انهياره. إنه لا خلاف على أن التكنولوچيا هى روح التطور والتقدم، ولكن الخوف كل الخوف من أثرها فى النسيج الاجتماعى فى حالة تدنى أخلاقياته وسلوكياته أو عدم قدرته على الصمود فى مواجهة طوفان تقدم العلوم واكتساح الفكر التكنولوچى وتطبيقاتها المزدوجة فى المنفعة أو الإضرار وسيطرة التكنولوچيا على الثقافة (Technopoly) لتوجهها وجهة مادية صرفة.

إن خط الدفاع الأول لسلامة المجتمع هو تدعيم التربية الدينية وترشيد السلوك حتى ينتج جوانب الخير وملهمات الضمير ويشع أنوار الهدى والإيمان داخل النفوس والعقول والقلوب. إن تنمية الإنسان بمفهوم حضارى إسلامى يركز على شخصيته وقيمه ومبادئه ليكون رقيبًا على نفسه، مدركًا مصلحته ومصلحة المجتمع الذى ينتمى إليه، أصبح أمرًا ضروريًّا قبل فوات الأوان؛ لأن الطوفان القادم لن يرحم الضعفاء عقلًا وخلقًا.

إن الإسلام يقدم منهجًا متكاملًا للتربية والسلوك المستمدين من القرآن الكريم والسنة ويبنى المحور الأخلاقى والروحى الذى ينبغى أن تقوم عليه وترتبط به الحضارة المادية الوطنية المتقدمة والحديثة، حتى يأمن الإنسان على نفسه من شرور وأضرار هذه الحضارة على شخصه إن هو استند فيها على شقها المادى فقط أو الروحى فقط؛ لأنه بذلك يتناقض ويتصارع مع طبيعته ذاتها (جسد وروح) بما لذلك من أضرار وانحرافات نفسية وجسمانية.

كما أن القضاء على الأمراض التى تتفشى فى المجتمعات المختلفة ومؤسساتها والمتمثلة فى مظاهر «الفساد» أساسًا وما يتصل به من ظواهر لن يكون إلا بالتربية الأخلاقية فى محيط الأسرة والمدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة وسائر مؤسسات التربية والتوجيه والإصلاح للسلوك عن طريق القيم الروحية الدينية ـ المتماثلة فى كل الأديان السماوية ـ وبسياسة للإعلام والفن والآداب والثقافة تدعم هذه الرؤية الأخلاقية وهذا السلوك المرتبط بالقيم فى كل مجالات العمل المسؤول وعلى كافة مستوياته. وأيضًا بتطبيق مبدأى «المساءلة» و«المساواة أمام القانون» دون أية تفرقة بين الضعفاء والأقوياء، أو بين الفقراء والأغنياء، أو بين عامة الناس والمسؤولين فى الدولة على مختلف مستوياتهم من المسؤولية.